

المحاضرة الرابعة جذور الحركة الصهيونية

وحتى بالنسبة للفترة الحديثة فمع أن تيودور هرتزل هو من أرسى قواعد الصهيونية لكنه مع ذلك لم يكن الأول الذي دعا إلى الهجرة وجمع الشتات اليهود في العالم، بل انطلقت قبله العديد من الصيحات التي بذلت جهوداً معتبرة لجمع اليهود وتوجيه أنظارهم نحو الوطن القومي، لكنها بقيت مجرد أماني وكتابات، لم يكتب لها النجاح رغم أنها أيقظت مشاعر اليهود ووضعت اللبنة الأولى في طريق السعي نحو الوطن القومي، ولعل من أهم هذه الصيحات، صيحة اليهودي الإنجليزي "هنري فينش" (١٦١٦) خلال القرن السابع عشر، والتي تعد من الصيحات والنداءات المبكرة في الفترة الحديثة لإنشاء الوطن القومي، ومن خلال كتابة نداء اليهود ظهرت دعوته بتجميع اليهود في ظل قومية موحدة، رغم أنه لم يحدد فيه تفاصيل مكونات القومية اليهودية ولا الأرض التي ستنشأ عليها هذه القومية، وتلت هذه الدعوة دعوات أخرى قادها يهود متحمسون للوطن وجمع الشتات اليهودي في العالم ومنها الدعوة التي قادها الحاخام "هيرش كاليشر" (١٧٦٥-١٨٧٤) اليهودي البولوني الذي كتب كتابه "البحث عن صهيون" مؤكداً على القومية اليهودية وداعياً إلى استيطان فلسطين، وهو ما أكدّه الحاخام "يهوذا القلعي" (١٧٩٨-١٨٧٩) والذي تبادل الأفكار مع الحاخام "هيرش" ومن خلال كتابه "اسمعي يا إسرائيل" (شمعي يسرائيل) دعا إلى العودة إلى فلسطين تحت زعامة إنسان عادي دون انتظار المخلص وإقامة مستعمرات فيها، ورغم أن عامة اليهود نظروا إلى أفكار الرجلين على أنها هرطقة، إلا أنهما شكلا حجر الأساس للتمرد على الأفكار الدينية، ورفع راية العودة إلى فلسطين دون انتظار المخلص، وتدعمت هذه الدعاوى بدعوة "موريس هيس" (١٨١٢-١٨٧٥) إذ بدوره دعا إلى إقامة مستعمرات في الأرض المقدسة، وطالب فرنسا بمساعدتهم ومن خلال كتابه "روما والقدس" المنشور عام ١٨٦٢، رفض اندماج اليهود وجعل الحل الوحيد في العودة إلى أرض الميعاد، وبدوره "ليو بنسكر" (١٨٢١-١٨٩١) ومن خلال ما كتبه "التحرير الذاتي" نادي بالقومية اليهودية والوطن الخاص بكل اليهود، ورغم أن أفكار هؤلاء لم تحقق النجاح المطلوب إلا أنها شكلت بداية الطريق نحو الوطن القومي.

وظهرت بانتشار هذه الأفكار الجمعيات والتنظيمات التي اهتمت باليهود وبهجراتهم نحو فلسطين، فقد تأسست جمعية "رعاية الاستيطان اليهودي في فلسطين" عام ١٨٦٠ في مدينة فرنكفورت، وانضم إليها "كالشير" ومن خلالها ناقش أفكاره حول اضطهاد اليهود في أوروبا الشرقية، والدعوة إلى الوطن القومي وتأسست جمعية "الأليانس الاسرائيلية" عام ١٨٦٠ بفرنسا والتي رغم أن دعوتها كانت دمج اليهود في محيطهم ونشر الفكر والثقافة الفرنسية، إلا أنها قامت بإنشاء مدرسة زراعية في فلسطين أسمتها "مدرسة ميكفاه إسرائيل الزراعية" بعدما اشترى جماعة من اليهود قطعة من الأرض بالقرب من مدينة يافا عام ١٨٦٦، لكن ظلت كل هذه النداءات والمجهودات مرتبطة بمشاريع استيطانية خيرية، واجتهادات لم ترق إلى برنامج سياسي واضح المعالم.

وعلى الأرجح أن المجهودات الأولى لم تضع سدى، فقد مهدت الطريق للأب الروحي تيودور هرتزل لطرح مشروعه والإفصاح عنه وصياغته من خلال كتابه "الدولة اليهودية"، مدفوعا مع من سبقه بوقت قصير بعاملين أساسيين هما: شعور القومية القوي الذي نما بين اليهود وانتشر قدوة بانتشار النزاعات القومية في أوروبا، على غرار ما حدث في سويسرا وهنغاريا ومقاطعات البلقان المختلفة، ومحاولة أيرلندا تحرير ذاتها من السلطة الإنجليزية، واتحاد إيطاليا وألمانيا كل هذا أثر على اليهود وولد فيهم مع الوقت اشتياقا للاتحاد العنصري والحياة المشتركة، كما أثر العامل الثاني في اليهود وهو حركة المعاداة التي انتشرت ضدهم في أوروبا الشرقية خاصة، وامتدت إلى كل أوروبا وبشدة، فسقطت كل أحلامهم بالاندماج، وتوجهت نحو فكرة الصهيونية والوطن القومي لاستمرار بقاء الشعب اليهودي.

كانت إقامة هرتزل في فرنسا قد جعلته يهتم بالمسألة اليهودية تحت تأثير وقع حادثة "الضابط دريفوس" التي ازداد على إثرها العداء لليهودي، وشعر هرتزل أن اليهود في مثل هذه القضايا هم كبش فداء، وراح يبحث عن حل لقضية العداء، فوجد أن المشكلة اليهودية لن تحل إلا على أساس قومي، ونشر آراءه عام ١٨٩٦ في كتاب أسماه "الدولة اليهودية" دعا فيه إلى إقامة دولة ذات سيادة وألحق بالعنوان الرئيسي عنوانا فرعيا واصفا فيه بأنه "محاولة لإيجاد حل عصري للمسألة اليهودية" ووجه أول نسخة منه إلى آل روتشيلد كسب هذه العائلة إلى جانبه إلا أنه لم يوفق كما تواصل مع البارون هيرش إلا أن الحظ لم يسعفه مع هذه الشخصية أيضا، ونشر الكتاب لاحقا وترجم للإنجليزية والفرنسية والعبرية مما ساعد في نشره في الأوساط اليهودية عبر أنحاء العالم.

لقد تضمن كتاب هرتزل كل التفاصيل المتعلقة بالدولة اليهودية التي أكد أنها ستقوم لا محالة، ورسم معالمها الأولية والوسائل التي ستساعد على قيامها، ومع أنه لم يحدد فلسطين بدقة في البداية فهناك منطقتان موضوعتان في الاعتبار فلسطين والأرجنتين، لكنه لم يخف تركيزه على فلسطين فلا مكان آخر غيرها فهي الوطن التاريخي الذي لا تمحى ذكره عند اليهود، ويكفي أن سحر هذا الاسم وحده سيجلب إليها كل اليهود، وأعتبر هرتزل أن ما كتبه سيفتح باب المناقشة في "المشكلة اليهودية" وسيشترك في هذه المناقشة الأصدقاء والأعداء على السواء ولكن على أمل أن لا تأخذ المناقشة شكلا من أشكال السباب والعنف أو التبرير العاطفي، بل تمنأها مناظرة ذات طابع علمي جاد وسياسي وتصور لدولته لغة وعلماء وجيشا ومؤسسات تقوم عليها، ونظاما للمجتمع الذي سيتكون بواسطة فتح أبواب الهجرة التي ستخضع لخطه مع شراء الأراضي والمباني، وركز على المسألة اليهودية التي اعتبرها من مخلفات العصور الوسطى وأنها توجد حيثما يوجد عدد ملحوظ من اليهود، فحتى الشعوب المتحضرة لم تتخلص من معاداتها لليهود، وعلى هذا الأساس لا يوجد حل لليهود إلا بإقامة وطن فهم يمثلون شعبا واحدا طالما عاش الاضطهاد وأكد: "ربما يكون في مقدورنا الاندماج تماما في الأجناس التي تحيط بنا إذا شاءت هذه الأجناس أن تدعمنا في سلام لمدة جيلين، ولكنهم لن يدعونا في سلام، إنهم قد يتحملوننا لفترة قصيرة من الزمن ثم يبدأ عدائهم يتفجر مرة بعد مرة... وهذا

أضاف "سواء رغبتنا أو لم نرغب فإننا الآن وسوف نظل جماعة تاريخية ذات خصائص عامة لا يمكن أن تخطئها العين، إننا شعب واحد."

ولنجاح خطته اقترح هينتين هما: جمعية اليهود وشركة يهودية، فيعد أن يحصل اليهود على قطعة من الأرض تكون تحت سيادتهم، سوف يتكفلون هم بالباقي، وسوف تقوم جمعية اليهود بالأعمال التمهيدية في مجال العلم والسياسة، ثم تقوم الشركة اليهودية فيما بعد بتطبيقها عمليا، وكم كان متفائلا فقد اعتقد أن جيلا رائعا من اليهود سوف ينبثق إلى الوجود، وأن اليهود الذين يريدون الدولة اليهودية ستكون لهم وسوف يعيشون أخيرا رجالا أحرارا على أرضهم ويموتون فيها بسلام. ورغم أن نجاحه لم يكن سهلا خاصة في البداية إذ واجه رفضا حتى من بني جلدته وتردد أصحاب المال اليهود في دعمه خوفا من فقدان مناصبهم ومكتسباتهم في الدول التي يقيمون فيها، إلا أن هذه العقبة سرعان ما زالت، بعد أن اقتنع اليهود والمجتمع الأوروبي أن منافع قيام دولة يهودية كبيرة بالنسبة لهم، ولم تتلاش أفكاره بل تجمع مع الوقت حولها اليهود وغيرهم حتى وصلوا إلى تأسيس دولتهم المزعومة، عن طريق العمل السياسي والدبلوماسي والاستيطاني في فلسطين وإن كان هرتزل قد بدأ فإن صهاينة العالم قد أكملوا المشوار.

لا يمكن التسليم بأن أفكار هرتزل صحيحة من الناحية التاريخية إلا أنه أقنع بها معارضوه، وانطلقت الصهيونية من رفضها لليهودية دينا، ولليهود مواطنين وأفراد يعيشون في محيطهم الاجتماعي كل حسب انتمائه الطبقي، فبالنظر لهذا المنطلق نتأكد أنها حركة عنصرية استعمارية وإن ادّعت غير ذلك وتمسكت بالتباكي والشكاوي.

وهذا ما أثار مناقشات حادة إذ أحس الاندماجيون اليهود في أوروبا وأمريكا في صهيونية هرتزل مصدرا للشك في ولائهم للمجتمعات والدول التي يعيشون فيها، كما رأى مجموعة من رجال الدين اليهود أفكار الصهيونية خروجاً عن تعاليم اليهودية ورسالتها في العالم، في حين عارض التقدميون والاشتراكيون فكرة الدولة اليهودية على أساس أنها رجعية دعت إلى فكرة الدولة الثيوقراطية، وهروب من المواجهة ومحاربة الظلم في المجتمعات التي طالما عاش فيها اليهود.